# الجامعات والتصميم المعماري في العمارة العربية المعاصرة(ب)

د. وليد السيد
معماري/جامعة لندن

*يحتل التعليم في الثقافة العربية الإسلامية بعامة أهمية خاصة لارتباطه بالعقيدة التي تحض وتدفع على العلم كونه جزءاً تعبدياً ان قصد به وجه خير، ومن جهة أخرى يحتل العلم والتعليم تلك المكانة لما له من شأن في رفعة الفرد والأمة.*

*أما التعليم العالي فيعتلي أهمية خاصة مع توسع العلوم والمعارف بين الشعوب والامم المختلفة وعلى مدى التاريخ الانساني، مما تطلب ظهور التخصصات الدقيقة في كافة المجالات العلمية حيث تصعب بل وتستحيل الاحاطة بأكثر من جانب معين منحصر في أحد العلوم التي تتمدد بسرعة ملحوظة، وحيث تحفل المكتبات ومعاهد العلم بالكتب التي لا حصر لها في كل المجالات والعلوم الإنسانية.*

*ونتيجة لزيادة الاقبال على التعليم العالي من قبل الطلبة العرب سواء أكانت داخل الوطن العربي أم خارجه، فقد نجم عن ذلك العديد من المتغيرات الاجتماعية كارتفاع سن الارتباط، والمهنية كظهور الوظائف المتخصصة، وتغيرات علمية حيث تبلور التعليم المتخصص في المجالات الدقيقة، وفيزيائية بيئية عمرانية إذ تطلب ذلك التفكير بأنماط جامعية مؤسسية تعكس متطلبات العصر وتلبي احتياجات البرامج التدريسية وأساليب التعليم الحديثة.*

*ومن هنا فقد ارتبط بالاقبال على التعليم العالي بالوطن العربي ظاهرتين متلازمتين: الأولى هي تغير ملحوظ في البيئة والبنية التحتية للمجتمع الأكاديمي منهجاً وناتجاً.*

*والثانية ظاهرة تقديم مفاهيم جديدة في التعليم الجامعي مما انعكس على الجامعات ومفهومها في التصميم المعماري المعاصر.*

*وفيما يلي نلقي الضوء على هاتين الظاهرتين.*

وفي نفس الاطار كانت البيئة المبنية العربية تبحث وتتلمس الطريق لمفهوم العمارة الجامعية من خلال بعض المحاولات المتناثرة هنا وهناك كمشروع جامعة الكوفة ببغداد أو جامعة ام القرى بمكة المكرمة وغيرها، وتوفرت مع ذلك مؤسسات جامعية تعتمد أنظمة أكاديمية لا تواكب التسارع العالمي في البحث والتدريس العالي، وهذه الجامعات توفرت في العواصم العربية الرئيسة كالقاهرة، أو بغداد، أو الرياض، أو الكويت، أو الرباط وعمان وغيرها. ونظرا لتزايد الاعداد من الطلبة الخريجين من المراحل دون مرحلة التعليم الجامعي، فقد كان لا بد من توفر: اولا الجامعات التي تواكب هذه الزيادة المطردة، وثانيا الطاقم الأكاديمي الذي يواكب انظمة التدريس الحديثة المتنامية في دول العالم الصناعي المتقدمة.

تلك الظاهرة أدت لظهور طبقة من الخريجين العائدين من دور ومعاهد العلم الغربية مع مطلع الثمانينيات الذين شكلوا الناتج لهذه الظاهرة والمكون للنظام الأكاديمي العربي في نفس الوقت.

وبخلاف النظام الفرنسي المتمثل بجامعة السوربون، وبعض الجامعات المتناثرة في أوروبا الشرقية كرومانيا وبلغاريا وغيرها تعتمد أنظمة أكاديمية لا تواكب التسارع العالمي في البحث والتدريس العالي، وهذه الجامعات توفرت في العواصم العربية الرئيسة كالقاهرة، أو بغداد، أو الرياض، أو الكويت، أو الرباط وعمان وغيرها. ونظرا لتزايد الاعداد من الطلبة الخريجين من المراحل دون مرحلة التعليم الجامعي، فقد كان لا بد من توفر: اولا الجامعات التي تواكب هذه الزيادة المطردة، وثانيا الطاقم الأكاديمي الذي يواكب انظمة التدريس الحديثة المتنامية في دول العالم الصناعي المتقدمة.

تلك الظاهرة أدت لظهور طبقة من الخريجين العائدين من دور ومعاهد العلم الغربية مع مطلع الثمانينيات الذين شكلوا الناتج لهذه الظاهرة والمكون للنظام الأكاديمي العربي في نفس الوقت.

وبخلاف النظام الفرنسي المتمثل بجامعة السوربون، وبعض الجامعات المتناثرة في أوروبا الشرقية كرومانيا وبلغاريا وغيرها أو روسيا، أو بعض الجامعات العربية كالقاهرة ودمشق وبيروت، فقد سيطر على الوسط الأكاديمي مدرستان استقطبتا أنظار الجيل العربي من طلاب التعليم العالي وهما المدرسة أو النظام التعليمي الامريكي، والمدرسة البريطانية، وشكلت هاتان المدرستان الغربيتان ابرز الاقطاب الفاعلة في التفكير العلمي والمنهجي الأكاديمي أيضا نظرا لسيطرة اللغة وغزارة المؤلفات التي تنتمي لهما وبالرغم من مشاطرة هاتين المدرستين لزعامة الفكر والمنهج الأكاديمي العالمي، إلا ان ثمة اختلافا منهجيا أساسيا يبرز بين المدرستين، إذ تعتمد الامريكية نظام المواد المقررة في السنوات التأسيسية في مرحلة التعليم ما بعد درجة الماجستير، فيما تعتمد البريطانية على الرغم من عراقة تاريخها نظام البحث العلمي المعتمد على البحث وعلاقة الاشراف والمتابعة بين الطالب والاستاذ التي تتذبذب بين مد وجزر تبعا لطبيعة الموضوع ومدى ادراك المشرف له، إضافة إلى عوامل أخرى متعددة منها ما هو مادي اقتصادي محض.

وفي خضم هذه الطفرة (التخريجية) من مختلف انحاء العالم وبخاصة من اوروبا الشرقية التي سجلت اعلى نسبة خريجين في العالم العربي وبخاصة قطاع الهندسة المعمارية مع مطلع الثمانينيات، فقد نتجت فئة من المعماريين الذين عكسوا النظم والمناهج التي تلقوها في البلدان التي تخرجوا منها. ونجم عن ذلك نظامان اساسيان في التعليم والتصميم الجامعي عكسا طبيعة العلاقة بين الأكاديمي والمهني من جهة، وبين المجتمع وبين كليهما من جهة ثانية. فالنظام الاول ويمكن ان نسميه النظام المغلق، وهذا النظام يكرس العلاقة الجامدة بين الأكاديمي وبين المهني والمجتمع، فالأكاديمي في هذه الحالة غالبا ما يكون مفتقرا للخبرة المهنية التصميمية، ولا يلم بما يدور في الوسط المهني اذ التحق بالتعليم العالي مباشرة بعد اتمام الشهادة الأولى وعاد ليلتحق بسلك التدريس وتعوزه الدراية والموهبة التقنية لتدريب الطلبة ومواكبة الانظمة والمهارات الحديثة أو التقليدية على حد سواء، ليس ذلك فحسب إنما الحال في معظم الاحيان ان معظم الامثلة من هذا النظام تتقوقع في التدريس على حساب المساهمة حتى في التأليف والبحث العلمي، وعلى الرغم من بعض المحاولات الجادة لتقوية العلاقة بين الجامعات والمجتمع إما من خلال دعوة المهنيين المتميزين للمحاضرات والندوات أو لتحكيم مشاريع الطلبة، أو العكس بدعوة الأساتذة الأكاديميين لتحكيم المشاريع والمسابقات المختلفة، الا ان كلتا المحاولتين اثبتتا الهوة العميقة بين النظرية (الأكاديميين) والتطبيق (المهنيين)، ففي الحالة الأولى يجد الطلبة انفسهم امام خبرة تصميمية جادة تومض امامهم ومضات لا تكفي لسد رمق أو ربما توقعهم في الحيرة بين الفكر النظري (البعيد عن الواقع والمفتقر للخبرة والذي عاشوه فترة دراستهم)، أو بين الفكر التطبيقي (الذي يطل عليهم موسميا).

أما في الحالة الثانية فإن دعوة الأكاديميين لتحكيم المسابقات المعمارية قد فضحت حقيقة الهوة بين الدراسة النظرية والتفكير العملي، وانتجت في غالب الاحيان – كنتيجة لتحكيم المسابقات المعمارية من قبل الأكاديميين – مشاريع غير مؤهلة على حساب الفكر المعماري الرائد، عدا الاحباطات والخسائر المادية لرواد المعماريين الذين تم اسقاط مشاريعهم نتيجة هذا (الجهل الأكاديمي).

ويعكس هذا النظام الاول حسيا انماط الجامعات التي تتميز بحرمها الجامعي المغلق، أو المدينة الجامعية، وامثلة هذه الجامعات هي معظم الجامعات العربية المعاصرة. ومؤخرا برز نموذج متميز متمثل في محاولة الكفراوي الرائدة لتقديم مفهوم الجامعة المعاصرة في جامعة قطر، (انظر الصور)، وكذلك محاولة بدران وعبد الحليم ابراهيم في جامعة كوالالمبور بماليزيا.

أما النظام الآخر ويمكن ان نسميه النظام المفتوح، فهو اسم على مسمى ويوضح العلاقة اللصيقة بين الأكاديمي الذي جمع بين الخبرة العملية في فترة مهمة من حياته الأكاديمية أو العملية، وترك بصمات واضحة على البيئة العمرانية قبل ان يلتحق باحد النظم الأكاديمية العالمية لاتمام دراسته العليا، وبعد عودته انخرط في كلا السلكين الأكاديمي والمهني التطبيقي بشكل فاعل ومؤثر ايجابيا، وافراد هذا النظام قلائل ويكادون يعدون على اصابع اليد في العالم العربي. وغالبا ما يعكس افراد هذا النظام نمط الجامعات التي تخرجوا منها التي تتميز حسيا بأنها جزء من المدينة لا منعزلة عنها، كمعظم جامعات بريطانيا ومنها جامعة لندن مثلا، إذ تغاير مفهوم المدينة الجامعية المسورة، وكذلك حيث ينخرط الأساتذة في مشاريع تصميمية في المجتمع الذي يعيشون فيه، وبذلك تصبح الجامعة ومعاهد البحث العلمي هي بمثابة المختبرات النظرية التي تقعد (بتشديد العين) القواعد وتؤسس الأسس التي ينطلق منها التطبيقيون في ممارستهم المهنية العملية، ولذا نجد ان أغلب الدراسات الموسوعية أو النظرية تنبثق من أنصار هذا النظام الأكاديمي، فمعظم المؤلفات والكتب العالمية تتمحور حول اساتذة وباحثي هذه الجامعات (المفتوحة) بالمفهوم الواسع للكلمة، وعسى ان ترتقي جامعاتنا العربية لتنهض بالفكر العلمي وتقلل هذه الفجوة بين النظرية وبين التطبيق في الفكر العلمي وفي الفكر المعماري بشكل خاص.

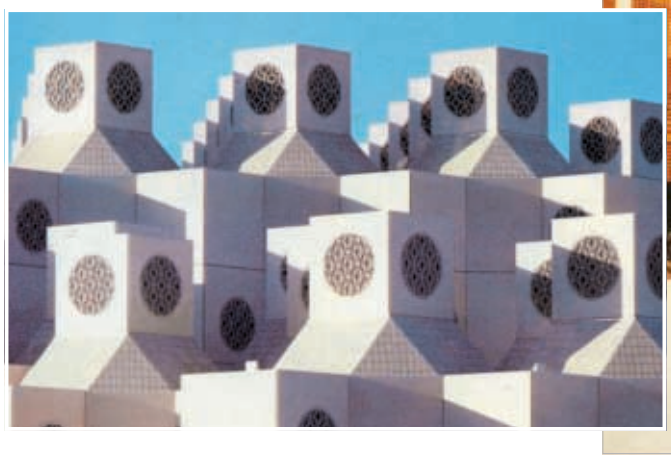

## مراجعة كتاب ....

### (العمارة العالمية المعاصرة)

### "Contemporary World Architecture"

**by: Hugh Pearman**

Publisher: Phaidon Press Limited

London 1998

□ *لونارد – لندن:*

يطرح هذا الكتاب الذي صدر قبيل نهاية القرن العشرين مراجعة واسعة للعمارة العالمية بشمولية، اذ يستعرض أكثر من ستمائة مبنى حول العالم للعديد من المعماريين المعروفين والمرموقين عالميا. وتأتي اهمية هذا الطرح الواسع اذ انه يشمل ابرز المنجزات العمرانية خلال الثلاثين سنة الاخيرة من القرن العشرين، كما انه لا ينحصر في بقعة جغرافية معينة، بل يشمل اطراف العالم ككل. وبالاضافة إلى هذا الطرح الشامل يحلل المحرر لهذا الكتاب ثلاثة عشر مشروعا متميزا بالتفصيل وذلك من أجل تتبع الافكار والمفاهيم التصميمية التي كانت وراء عملية التصميم والناتج النهائي. كذلك يروي الكاتب الاحداث والملابسات وراء عملية التصميم لهذه المباني موضع التحليل والتركيز. كذلك فإن الكتاب لا ينحصر في نوع معين من المباني انما يوضح ويحلل كافة انماط المباني الحديثة، من ابنية مكتبية وبنوك مثل بنك جدة وبنك الصين، ومطارات مثل مطار اليابان، ووزارة الخارجية بالرياض، والمجمعات والابنية التجارية في الامريكيتين، ومراكز الخدمة الاجتماعية، والمتاحف والمباني الرياضية، وابنية سكنية وخاصة وغيرها. كذلك يتعرض لتصميمات العديد من معماريي العالم المعروفين مثل الدو روسي، ونورمان فوستر، وهنتج لارسن، وفنتوري، وبرنارد تشومي، وغيرهم.

يتميز الكتاب من ناحية فنية بالمستوى العالي المتميز لعرض الرسومات والصور التوضيحية ومقابلتها مع النص، وتتنوع الرسومات ما بين المخططات الافقية للمباني بوضوحية فائقة، إلى المقاطع التوضيحية، والرسومات ثلاثية الابعاد كالايزومتري والمناظير الداخلية والخارجية إضافة إلى الصور المتنوعة الملونة جميعا بلا استثناء والتي تتنوع ما بين الصور الجوية للمواقع الحضرية إلى المناظر الكلية للمباني، وكذلك اللقطات الداخلية والتفاصيل المعمارية التي توضح المواد الانشائية المختلفة المستعملة والتي تعكس التنوع التقني الفائق بين مدن العالم المختلفة.

ويقع الكتاب في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير، كذلك يحتوي على دليل مرفق بالصفحات الاخيرة لتسهيل عملية ايجاد مبنى أو اسم معين حيث الاسماء ابجديا مع ارقام الصفحات التي ترد بها، وينصح بهذا الكتاب لمن له اهتمام بالعمارة بشكل عام، وكذلك للمتخصصين بشؤون العمارة من الطلاب والدارسين المعماريين اذ يسد فجوة كبيرة في المكتبة والثقافة المعمارية.

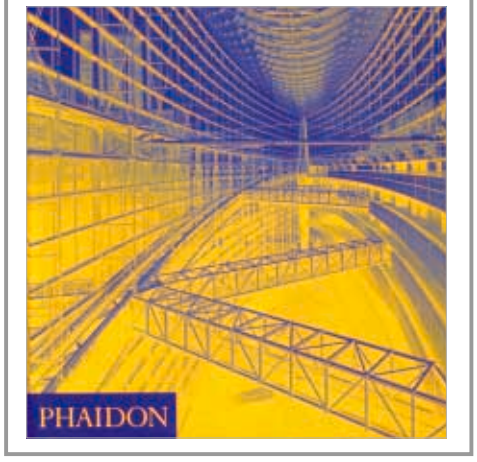


# مئذنة الجامع الكبير بأشبيلية: ألجيرالدا

من بدائع التراث

□ *لونارد – لندن:*

مع نشأة حركة الموحدين في المغرب العربي في القرن السادس الهجري، نمت وتطورت انماط من العمارة المغربية المتميزة حيث تعد مآثرها من روائع ما خلقته العمارة في تلك المنطقة. وقد سيطر الموحدون على بلاد المغرب العربي وتشمل المغرب وتونس والجزائر والاندلس، حيث دامت دولتهم من سنة ٥٤١ هـ إلى سنة ٦٦٨ هـ، وقد نشطت الحركة العمرانية بشكل فائق لم يسبق له نظير، وبخاصة عمارة المساجد، وابرز ما ادخله الموحدون في نظام العمارة المسجدية كان عنصر المئذنة التي تميزت عن مثيلاتها في بقية دول العالم الاسلامي في بلاد الشام، حيث كانت المآذن الموحدية تبنى من الآجر، وشكلها برجي ذو قاعدة مربعة تعلوه شرفات، ويتلوها برج آخر أصغر حجما، وتنتهي المئذنة في اعلاها بقبة صغيرة. وأشهر وأروع الأمثلة المعمارية على هذا النمط من المآذن هي مئذنة الجيرالدا بالجامع الكبير باشبيلية بالاندلس.

وتروي كتب التاريخ المعماري ان اسم المهندس الذي قام ببناء المئذنة مجهول، بالرغم من ان الذي بنى المسجد ذاته هو أحمد بن باسة، وتتألف المئذنة من طابقين، الاول وهو الذي يشكل الجزء الاكبر من جسم المئذنة، ويتنهي بإفريز افقي، اما الجزء الثاني فهو برج اصغر حجما يعلو الجزء الاول. وتقوم المئذنة على قاعدة مربعة الشكل ضلعها ١٣،٦٥ متر، وبداخلها نواة مربعة ايضاً ضلعها ٦،٢٥ متر والتي يلتف حولها منحدر صاعد تعلوه قباب متقاطعة. اما النواة المركزية فتحوي سبع غرف ذات تخطيط مربع متراكبة واحدتها فوق الاخرى، خمس منها مسقوفة بقباب نصف كروية، ويبلغ ارتفاع هذه الغرف ما بين ٤،٩ متر إلى ٦،٣ متر. ويبين التركيب الداخلي للمئذنة على مهارة ودراية بفن العمارة مما يضفي بعداً مهماً عدا عن الوظيفية للمئذنة اذ احتوت تجويفاتها على هندسة بديعة. وليس ذلك فحسب انما نجد ان الزخارف البديعة التي تغلف المئذنة من الخارج تنم عن ذوق رفيع. اذ تزين كل وجه من اوجه الجيرالدا ثلاثة شرائط ممتدة ينفتح خلالها ازواج من النوافذ مع توازن مدروس بين الكتلة والفتحات والعلاقة بينهما، وكذلك نماذج متميزة من الزخارف المتلوية ومتعددة التشكيلات الهندسية، وقد وصفها بعض المؤرخين والرحالة: (...لا صومعة تعدلها في جميع مساجد الاندلس، وثاقة عمل، وغرابة صنعة...).

وكانت هذه المئذنة موضع اعجاب أهالي الاندلس من المسلمين والنصارى على حد سواء، حيث يثير انسجام بنائها وروعة زخارفها الفخر والإعجاب ببنيانها، وبقيت هذه المئذنة الفريدة تحت حكم المسلمين إلى ان انحسرت دولة المسلمين بالاندلس وحين سقطت اشبيلية في العام ١١٤٨ ميلادية، وكانت المدينة قد وقعت تحت الحصار منذ عامين، ولم تعد تقوى على المقاومة، فأجرى أهلها مفاوضات مع المعتدين من الصليبيين لاعطائهم الحق بالتصرف بمبانيهم قبل سقوط مدينتهم، فمنعهم القائد الهاجم الفونسو من ذلك وهددهم ان هم هدموا المئذنة بقتلهم، مما يدل على مكانة هذه المئذنة التي تحولت بعدها إلى برج كنيسة ، وهي المئذنة الوحيدة التي احتفظت دوماً بطابعها الاسلامي في بلاد الاندلس وذلك بفضل شكلها وارتفاعها، وحيث اطلق عليها اسم الجيرالدا في القرن السادس عشر. وقد لعبت الجيرالدا دوراً مهما في الفكر المعماري لاحقا في الفنون المغربية والاندلسية من حيث نمط تخطيطها وتشكيلها، وكذلك فيما حوته من زخارف ونقوش تركت أثراً وتجلت في العمائر والقصور بغرناطة وايضا في مباني المدجنين الدينية. وهكذا كانت هذه المئذنة مما ترك آثاراً في العمارة الإسلامية والمسيحية مما لم يعهد من قبل في تاريخ العمارة الإسلامية.

العمارة والفنون النظرية في العالم العربي والإسلامي

# جامع القيروان

## مدينة تونس

□ *لونارد – لندن:*

يعد هذا الجامع واحدا من اهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب العربي، حيث اسسه عقبة بن نافع عام خمسين للهجرة / ٦٧٠م، وتم الانتهاء من بنائه عام ٥٥ للهجرة، ومنذ ذلك الحين تمت زيادات متعددة على التخطيط الاساسي للمسجد على أيدي العديد من الامراء الذين تعاقبوا على الحكم كانت آخرها على يد تاسع امراء الاغالبة إبراهيم بن أحمد الاغلب الزيادة التي تمت عام ٢٦١ هجرية. ويحتفظ المسجد بالابعاد كما تمت الزيادة على يد ابراهيم الاغلبي حيث يبلغ طول جدار القبلة ٧٢ مترا، فيما يبلغ عمق جدار الصلاة ٣٦ مترا، ويبلغ عدد الاروقة داخل حجرة الصلاة سبعة اروقة، فيما تمتد اثنا عشر رواقا آخر تحيط بالفناء الداخلي للمسجد، ويبلغ طول فناء الجامع ٩٠ مترا وعرضه ٧٠ مترا، ويلاحظ ان الفناء يمتد بضلعه القصير باتجاه القبلة، فيما يمتد ضلعه الاطول مادا جسم المسجد وكذا الصفوف للمصلين عموديا على جدار القبلة. ويعد المسجد تمثيلا للعمارة المغربية التي سادت بلاد المغرب العربي ابان الفتوحات الإسلامية في تلك الفترة، ولذلك لا عجب ان نرى ان المسجد باسواره الخارجية يماثل الحصن أو الرباط بالمفهوم الذي تم تقديمه في عمارة تلك الفترة. ويمتاز المسجد بمميزات مهمة تعد من ابرز علائم المساجد المغربية، منها ان المنطقة المغطاة والمخصصة للصلاة عميقة وتكاد تغطي نصف مساحة المسجد، فيما تغطي الاروقة الجانبية مساحات قليلة، اذ تبلغ رواقان جانبيان فقط. أما الميزة الأخرى فهي ان المئذنة مستقلة عن جسم المسجد وتشبه البرج، وتقوم في الجزء المقابل لجدار القبلة في الضلع القصير للفناء، وتعتبر مئذنة القيروان من المآذن المتميزة ، اذ تتكون من برج ذي ثلاث طبقات، ومربعة الشكل، وتتدرج متناقصة كلما ارتفعنا للاعلى، ويبلغ ضلع المئذنة من الاسفل ١٠،٦٧ مترا، فيما يبلغ ارتفاعها ما يزيد على ٣١ مترا. وتقع المئذنة في الجهة المقابلة لجدار القبلة في الطرف الآخر لصحن المسجد، ويبلغ عرض بابها مترا وبارتفاع مترين تقريبا، ويتشكل كحدوة فرس. أما الدرج الرئيسي للمئذنة فيصل حتى ارتفاع الجزء الاسفل والذي يبلغ ارتفاعه حوالي ثمانية عشر مترا، كما يستمر بعدها درجان آخران يصلان الدورا الثاني الذي يبلغ ارتفاعه خمسة امتار، والثالث الذي يبلغ ارتفاعه سبعة امتار ونصف. ويعتقد ان الجزء الاسفل هو اول ما كان قد بني، ثم اضيف الجزآن الآخران لاحقا في خلافة هشام بن عبد الملك على يد واليه بشر بن صفوان في العام ٧٢٤ ميلادية.

أما عمارة المسجد الداخلية وجوها الداخلي فتوحي بالطمانينة التي تحصل للمرء حين يقف بين اروقة الصلاة جالسا أو متنقلا، ويوحي الضوء الذي يتسلل إلى قاعة الصلاة بمعاني روحانية تبعث السكينة والهدوء. ولا يخلو المسجد من النقوشات والتزيينات والرخام الملون في العديد من اجزائه الداخلية، مما يضفي مسحة من البهاء على فراغاته لدى وقوع النور عليها. وبلا شك فإن للعمارة الجميلة والتلاعب المتناغم بين الظل والنور، والانتقال المتدرج من الداخل إلى الخارج وبالعكس دورا وأثرا مهما في تحقيق معاني روحية ونفسية بالغة لدى المرء وهي أبرز ما يميز العمارة الإسلامية وبخاصة العمارة المسجدية منها.